المبحث الثاني

مع الوطنيين و القوميين

من البلايا والرزايا التي ابتليت بها الأمة الإسلامية في عصور تخلفها كثرة الدعاة إلى الوطنية والقومية ، وكم تعالت أصوات أصحاب هذه الدعوات ، داعين الناس إلى الانصياع لهم بما زوروا من كلام ؛ ظاهره فيه الرحمة وباطنه فيه العذاب .

ولم تكن الدعوة إلى القومية دعوة واحدة ، بل كانت دعوات ؛ فهذه قومية تركية طورانية في تركيا ، وأخرى سورية فينيقية في سوريا ، وثالثة مصرية فرعونية في مصر ، ورابعة بربرية مغربية في المغرب ، وعراقية آشورية في العراق . . . وهكذا ، وكانت أبرز هذه القوميات هي القومية العربية ، وبرز لها دعاة وفلاسفة وكتاب ومنظرون حتى غدت القومية العربية في فترة من الفترات كأنها دين يدان به ، أو شريعة تشرع للناس ، وأصبح كلام فلاسفتها ودعاتها كأنه وحي يوحى ، أو قرآن يتلى ، بعدما أفضى عليه هؤلاء الفلاسفة قداسة لا تكون إلا لوحي ، وتعظيماً لا يكون إلا لقرآن .

وموقف المسلم من الوطنية والقومية ليس هو موقف العداء المطلق ، ولا التسليم المطلق ؛ بل هو موقف التوسط والاعتدال ، يأخذ منها الخير ، ويدع ما فيها من شر ، ولقد عبر الإمام الشهيد حسن البنا ـ رحمه الله ـ عن موقف المسلم من هذه الدعوات في رسالته الرائعة « دعوتنا » فقال :

إن كان دعاة الوطنية يريدون بها حب هذه الأرض وألفتها والحنين إليها والانعطاف نحوها ، فذلك أمر مركوز في فطر النفوس من جهة ، مأمور به في

الإسلام من جهة أخرى . وإن بلالاً الذي ضحى بكل شيء في سبيل عقيدته ودينه هو بلال الذي كان يهتف في دار الهجرة بالحنين إلى مكة في أبيات تسيل رقة وتقطر حلاوة :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل[1]

ولقد سمع رسول الله ﷺ وصف مكة من «أصيل» فجرى دمعه حنيناً إليها وقال : «يا أصيل . . دع القلوب تقر»[2].

وإن كانوا يريدون أن من الواجب العمل بكل جهد في تحرير البلد من الغاصبين ، وتوفير استقلاله له ، وغرس مبادئ العزة والحرية في نفوس أبنائه ، فنحن معهم في هذا أيضا ، وقد شدد الإسلام في ذلك أبلغ التشديد فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون:٨) ، ويقول : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ (النساء:١٤١) .

وإن كانوا يريدون بالوطنية تقوية الرابطة بين أفراد القطر الواحد ، وإرشادهم إلى طريق استخدام هذه التقوية في مصالحهم . فذلك نوافقهم فيه أيضا ، ويراه الإسلام فريضة لازمة فيقول نبيه ﷺ : «وكونوا عباد الله إخواناً »[3]، ويقول القرآن الكريم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ (آل عمران:١١٨) .

وإن كانوا يريدون بالوطنية فتح البلاد ، وسيادة الأرض ، فقد فرض ذلك الإسلام ، ووجه الفاتحين إلى أفضل استعمار ، وأبرك فتح ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (البقرة:١٩٣) .

---

(١) رواه البخاري في التمني (٧٢٣١) .

(٢) ذكره ابن حجر في الإصابة ج ١ ص ٩٢ ، وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ج ١ ص ١٣٧. وأصيل هو : أصيل الهذلي .

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤) عن أبي هريرة .

وإن كانوا يريدون بالوطنية تقسيم الأمة إلى طوائف تتناحر وتتضاغن وتتراشق بالسباب ، وتترامى بالتهم ، ويكيد بعضها لبعض ، وتتشيع لمناهج وضعية أملتها الأهواء ، وشكلتها الغايات والأغراض ، وفسرتها الأفهام وفق المصالح الشخصية ، والعدو يستغل كل ذلك لمصلحته ، ويزيد وقود هذه النار اشتعالاً ، يفرقهم في الحق ، ويجمعهم في الباطل ، ويحرم عليهم اتصال بعضهم ببعض ، وتعاون بعضهم مع بعض ، ويحل لهم هذه الصلة به ، والالتفاف حوله ، فلا يقصدون إلا داره ، ولا يجتمعون إلا زواره ، فتلك وطنية زائفة لا خير فيها لدعاتها ولا للناس .

فها أنت ذا قد رأيت هذا أننا دعاة الوطنية ، بل مع غلاتهم في كل معانيها الصالحة التي تعود بالخير على البلاد والعباد .

وقد رأيت مع هذا أن تلك الدعوى إلى الوطنية الطويلة العريضة لم تخرج عن أنها جزء من تعاليم الإسلام [1].

القومية والمجتمعات الإسلامية :

عاشت المجتمعات الإسلامية وخصوصاً العربية فترات طويلة من الزمن دافنة تحت التراب القوميات المختلفة والأجناس المتباينة ، وإن كانت هذه النعرة الجاهلية لم تغب مطلقاً ؛ ولكنها كانت تظهر بين الحين والآخر ، وفي منتصف القرن التاسع عشر بدأت القوميات المختلفة ، من تركية وعربية وغيرها ؛ تظهر على الساحة ، وانتقل هذا المرض المعدي من بلاد أوربا إلى مجتمعاتنا الإسلامية، ويعد اللاجئون البولنديون والمجريون هم أول الناقلين لهذه العدوى «القومية» بعد انتقالهم إلى تركيا واعتناقهم الإسلام ، كما كان لاحتكاك العرب بالغرب وإرسالياته أثراً في انتشار هذه العدوى ، وكانت البداية بين نصارى العرب ، ثم سرعان ما انتقلت إلى المسلمين في أنحاء المعمورة .

---

(١) انظر : مجموعة الرسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص ١٩ ـ ٢١ .

وكان لظهور القومية العربية عدة عوامل أهمها :

١- سلوك جمعية «الاتحاد والترقي» سياسة «التتريك» ولو بالقوة الغاشمة .

٢- تطرف «جمال باشا» قائد الجيش الرابع في سوريا في قوميته ، وخصوصاً ما بدا من تعليق زعماء العرب البارزين على أعواد المشانق عام ١٩١٥ و ١٩١٦م .

٣- تشجيع الحلفاء للعرب للقيام بثورة ضد الأتراك ، وإغراق الزعماء الطامحين بالأماني والوعود [١].

القرضاوي ودعاة القومية العربية :

لقد كان الشيخ القرضاوي من أبرز دعاة الإسلام وقوفاً في وجه دعاة القومية العربية ؛ لكنه ما هذا كله لم يكن ليسلب العروبة من منزلتها ولا العربية من مكانتها ؛ ومن ثم فتراه يقول : ومهما يكن من أسباب ظهور القومية العربية ومبرراتها ، فقد كان يمكن أن تكون مجرد «وجدان مشترك» بين شعوب وحد بينها الدين واللغة والتاريخ والأرض ، إلى جانب الأفكار والعواطف والنظم والتقاليد إلى حد بعيد .

وكان يمكن - بل ينبغي - أن يؤدي هذا الوجدان المشترك إلى «فكر مشترك» و «عمل مشترك» من أجل تحرر الأمة ونهوضها وتقدمها ووحدتها ، وقيامها برسالتها المنوطة بها ، فلا قيمة لقومية بلا هدف ، ولا قيمة لأمة بلا رسالة .

وبهذا كله لا تحمل القومية العربية أي محتوى علماني ، أو طابع لا ديني . بل المفروض في «العروبة» خاصة أن تكون ذات ارتباط وثيق بدين الإسلام ، لأنه هو الذي أنشأ لها أمة ، وجعل لها رسالة ، وخلد ذكرها في العالمين .

---

(١) انظر : نشوء القومية العربية د : زين نور الدين ط دار النهار بيروت ص ٤٣ ، و انظر : الغرب والشرق الأوسط برنارد لويس ص ١٢٧ - ١٢٨ نقلاً عن : كتاب الحلول المستوردة د : ط . مكتبة وهبة .

فالعروبة وعاء الإسلام وسياجه ، والعربية لغته ولسانه ، والعرب عصبته وحماته ، وأرضهم معقله وحرمه ، من العرب بعث محمد ﷺ ، وبلسانهم نزل القرآن ، وبجهادهم انتشر الإسلام ، وفي أرضهم كانت قبلته ومثوى رسوله . . هم بالإسلام كانوا كل شيء ، وبغيره لم يكونوا شيئاً ولن يصيروا شيئاً .

كان امتزاج معنى العروبة بمعنى الإسلام هو المفهوم السائد في مصر وفي المغرب العربي الكبير ، فالمسلم إذا دعا فقال : اللهم انصر العرب ـ يعني في نفسه المسلمين ـ فهو لا يكاد يعرف العربي إلا مسلماً .

وقد عبر عن ذلك الشاعر المصري محمود غنيم فقال :

إن العروبة لفظ إن نطقت به فالشرق والضاد والإسلام معناه

وقد بين الشيخ علاقة الإسلام بالعروبة في معرض بيان لمقومات الفكر الإسلامي عند الإمام البشير الإبراهيمي ، والتي عدّ الشيخ منها : (الإسلام والعروبة: أساساً ومنطلقاً) ومما قال الشيخ هناك : والإسلام الذي يدعو إليه الإبراهيمي : مختلط بالعروبة اختلاط اللحم بالدم وكأنما عنده مركب كيماوي امتزج فيه العنصران كما امتزج الأكسوجين والهيدروجين فكونا (الماء) الذي جعل الله به كل شيء حي .

والعروبة التي يدعو إليها ليست عرقية ولا عنصرية ، بل هي عروبة لغة وثقافة ، وجوهرها اللسان العربي وهو الذي نزل به القرآن الكريم ، ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾
(الشعراء:١٩٣-١٩٥)

وهو الذي تكلم به الرسول عليه الصلاة والسلام ، ورويت به أحاديثه ، ودونت به سنته ، التي هي المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن .

والعربية هي لغة الأذان والإقامة ، والقراءة في الصلاة ، والتلبية في الحج وغيرها .

وقد أوجب الإمام الشافعي على كل مسلم أن يتعلم من العربية ما يؤدي به صلاته وعبادته .

كما أن القرآن عربي ، ومحمد رسول الإسلام عربي ، وأصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزله معه : عرب ، حتى من لم يكن منهم عربي الأرومة والعرق ، فقد تعرب باللسان حين تكلم العربية ، وقد روي حديث عن النبي صلي الله عليه وسلم يقول : « إنما العروبة اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي »[1].

وأرض العرب هي أرض الإسلام ومهده ومنبته ، فيها نشأت الدعوة ، وإليها كانت الهجرة ، وبها كانت الوفاة ، وهي التي ضمت رفاته عليه السلام ، والمساجد الكبرى المقدسة في الإسلام والتي لا تشد الرحال إلا إليها في أرض العرب : المسجد الحرام ، والمسجد النبوي ، والمسجد الأقصى [2].

ولكن الذي يؤسف له أن الجو الذي نشأت فيه فكرة القومية العربية من البداية ، لم يفارقها . وهو الجو الذي يريد أن يتخذ منها تكأة لضرب الفكرة الإسلامية ، والوحدة الإسلامية [3].

ولم يكن الشيخ ليقف هذا الموقف من القومية ودعاتها دون أن يبدي أسباب رفضه ، لكنه رفض القومية لعدة أمور :

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠٧/٢١) عن معاذ بن جبل ، وقال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم :هذا الحديث ضعيف وكأنه مركب على مالك ، لكن معناه ليس ببعيد بل هو صحيح من بعض الوجوه صـ١٦٩ .

(٢) انظر :البحث المقدم من فضيلة الشيخ للملتقى الفكري الذي دعت إليه جمعية علماء المسلمين في الجزائر ، لإحياء ذكرى الإمام : محمد البشير الإبراهيمي ، تحت عنوان : مقومات الفكر الإسلامي عند الإمام الإبراهيمي ص١٤ ، والمنشور على موقع فضيلة الشيخ ، والكتاب تحت الطبع .

(٣) انظر : الحلول المستوردة ص ١٥٠ ـ ١٥١ .

١- أن دعاة القومية يعتبرون القومية ديناً وعقيدة يجب الإيمان بها ، والولاء لها ، والدعوة إليها ، والتعصب لها ، وفي هذا يقول قائلهم : العروبة نفسها « دين » عندنا نحن القوميين العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين ، لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية ، ويقول آخر : لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة إن القومية العربية لهي نبوة هذا العصر .

٢- أن دعاة القومية يجمعون على إعلاء الرابطة القومية على الرابطة الدينية ومثلهم الأعلى يتجلى في قول شاعرهم :

بلادك قدمها على كل ملة ومن أجلها أفطر ومن أجلها صم
هبوني ديناً يجعل العرب وحدة وسيروا بجسماني على دين « برهم »
سلام على كفر يوحد بيننا وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم

٣- أن دعاة القومية ينادون بدولة علمانية « لا دينية » ويحصرون الدين في نطاق ضيق لا يتجاوز العلاقة بين الإنسان وربه ، إن رضوا بذلك ، وإلا فالقومي الأصيل كما صوره هؤلاء « يسقط الدين من حسابه ، ويضعه على الرف » أو في مستودعات المستهلك والتالف .

٤- أن فكرة القومية تدعو إلى تفتيت الأمة الإسلامية ، وتريدها أمماً شتى وقوميات متضاربة تتنازع على حدود أرضية ، وتتفاخر بعصبيات جاهلية ، وتعتز بغير الأخوة الدينية والرابطة الإسلامية ، وبهذا المنطق قاتل المسلمون بعضهم كما رأينا اقتتال العرب والترك في الحرب العالمية الأولى ، وكما رأينا قتال القومية العربية مع القومية الكردية في العراق .

٥- أن فكرة القومية فكرة جاهلية رجعية تنكر الدين وينكرها الدين ؛ أما أنها جاهلية فلأنها تقوم على إحياء العصبية التي كانت من أخص سمات العصر الجاهلي ، وقد رأينا من سمى ابنه « لهباً » حتى يناديه الناس بكنية « أبي لهب » فيحيي بذلك ذكرى زعيم عربي من زعماء الجاهلية .

وأما أنها رجعية فلأنها ليست إلا امتداداً للشعور القبلي ، وإذعاناً لعصبية العشيرة .

٦- موقف العداء الصارم من التيار الإسلامي ، والمعارضة لكل حركة إسلامية قوية ، تعمل على استعادة نظام الإسلام [١].

على أن الشيخ لم يغلق باب الحوار بينه وبين القوميين ، بل كان الشيخ مشجعاً لهذا الحوار وداعياً إليه بل ومشاركاً فيه ، ولما عقد المؤتمر القومي الإسلامي الأول ببيروت ١٩٩٤م والذي يعد من أبرز طرق التعاون بين التيار الإسلامي والقومي ، كان الشيخ القرضاوي على رأس المشاركين وأبرز المتحدثين من التيار الإسلامي ، بل لا نكون مبالغين إذا قلنا : إن كلمة التيار الإسلامي صبغت بصبغة الشيخ القرضاوي ، وهو ما عبر عنه المستشار « فيصل المولوي » بقوله : ولقد اشترك الدكتور يوسف القرضاوي في إعداد ورقة العمل حول الرؤية الإسلامية لحال الأمة ، وذلك مع الدكتور محمد عمارة والدكتور محمد سليم العوا والأستاذ فهمي هويدي ، ورغم أن ورقة العمل هذه كانت من إنتاج اللجنة الرباعية ، إلا أننا نستطيع القول أن فكر الدكتور القرضاوي حفظه الله كان ذا أثر كبير في كثير من هذه الورقة [٢].

---

(١) انظر : من أجل صحوة راشدة ص ٨٨ ـ ١٠١ بتصرف شديد .

(٢) انظر : مقال للمستشار فيصل المولوي على الشبكة العالمية « الإنترنت » .